بسرعة . ولقد كان لستر مشتغلاً بهذا الموضوع ولكنهُ لم يطلع فيهِ الاَّ بعد ان تناولهُ باستور وكشف سرَّهُ بنظره الصائب غير ان التقدم الاعظم فيهِ بدأ لما تناولهُ كوخ واثبت بالدليل ارتباط هذه الاحياء بالامراض وبيَّن كيف تميز وتلوَّن وتربَّى ومن ثم صار هذا العلم سهلاً مثبتاً ولولا باستور ولستر وكوخ وبنوع خاص لولا تجارب لستر العملية التي اثبتت اهمية هذه الاحياء لاستحال علينا ان نعرف هل كان من المحتمل وجود هذا العلم الآن بين العلوم

ولا ارى بي حاجة ان اقول شيئاً عن اللورد لستر من حيث هو رجل فان كل الذين عرفوهُ وعاملوهُ يعلمون انهُ كان حي الضمير ينظر في كل ما يُلقَت اليهِ نظر المنصف ويتألم جدًّا لآلام الناس و يبذل اقصى جهدهِ في تخفيفها وازالتها . حينما نُقل الى لندن كان عندهُ في مستشفى ادنبرج كثيرون من المصابين بامراض في الحبل الشوكي ولما رأى انهُ لا بدَّ من اخراجهم من المستشفى بعد خروجهِ منهُ نقلهم الى لندن وكان يعالجهم ويمرضهم على نفقتهِ الى ان شفوا

تقدم التدبير المنزلي وتاريخهُ[1]

المطلب الثاني

لم اكد ارى كاتباً او كاتبة مما بحث في ما كانت عليهِ المرأة الغربية في القرن السابع عشر والثامن عشر فان فيهما اخذ التقدم الاوربي الحقيقي باسباب الارتقاء ونحن نراهُ اليوم بالغاً اوج العظمة والقوة والمجد . هذا التقدم الذي نراهُ ثابتاً نامياً كان الفضل فيهِ لاتساع مدارك المرأة حتى ان اعاظم رجال الغرب يعزون كلَّ ارتقاء اوربي الى المرأة الغربية فهي في البيت السيدة والمرشدة والمربية والمديرة وفي الاجتماعات واسطة عقدها وفي البذل والاحسان صاحبة الكف الندية على تخفيف و بلات الانسان وفي سائر الاعمال والاشغال شاركة للرجل تنوب عنهُ في كثير منها . فمنذ قرون كثيرة لم يكن الرجل الالماني يجرأ ان يترفع على امرأتهِ كبراً وسلطة ولا كانت المرأة امة مملوكة بل كانت عضواً في الاجتماع مساوياً للرجل في كل امر . وكان الرجل يشركها في مهامهِ ويقدم لها اعظم احترام واكرام وكان لها مقام معروف في المجالس الرسمية كالمحاكم وغيرها فتبدي من الآراء ما يعود على امتها بالخير والاسعاد على ان قوانين الالمان في ذلك الاوان كانت شديدة الوطأة جدًّا على الرجل والمرأة

(١) خطبة القتها حضرة السيدة رحمة صروف في الجامعة المصرية

معاً سيفي ما يتعلق بالزواج فاذا خدع رجل عذراء او خان زوجتهُ وثبت الجرم عليهِ عوقب بالقتل وكانت هذه القوانين تقضي بالمحافظة على راحة المرأة وسعادتها واملاكها اشدَّ المحافظة ولا سيما في اثناء الحروب حتى ان الالمان لما اغاروا على الايطاليين واستظهروا عليهم في ذلك الحين حافظوا على حياة نساء اعدائهم وشرفهنَّ

وارتفع مقام المرأة كثيراً في عهد القياصرة السكسونيين فازدهرت المدنية ودبت الحياة في عروق الامة السكسونية وتحسنت الصلات بين الرجل والمرأة واشتركا الاثنان في المصالح والمرافق من تجارة وصناعة . ولم يكن ينظر الى الزواج كأنهُ ارتباط شخصين متحابين فقط بل كان يعدُّ وظيفة من وظائف الحياة المملوءة بالحقوق والواجبات

اما متطلبات الزواج في تلك الايام فلم تكن تختلف كثيراً من متطلباتها في بلداننا الشرقية هذه الايام فاذا اراد احد التزوج بفتاة اتخذ لهُ خاطباً اما احد والديهِ او قريباً للفتاة من ذوي النفوذ والكلمة المسموعة عند اهلها فيخاطبهم في الامر ومتى تمَّ الاتفاق يرسل العريس الهدايا والتحائف الى عروسهِ ويخذو اهل العروس حذوهُ ثم يقيم اهل العروسين حفلة لعقد الخطبة و يتبادل العروسان خاتميهما . ولم تكن مدة الخطبة تطول كما هي الحال في هذه الايام فانهُ بعد اتمامها ببضعة اسابيع تقام ليالي الافراح وتزف العروس الى عريسها على قرع الطبول والنفخ في الابواق . ولا يستتب لها المقام في منزل حليلها حتى تصير صاحبة الامر والنهي فيهِ . الاَّ ان اشغالها كانت كثيرة جدًّا فكان عليها الاعتناء بتدبير منزلها وبالمواشي والزراعة وكثيراً ما كانت تسوق الخدم بالعصا الاَّ انها كانت تجتنب معاملتهم بالقسوة المتناهية لئلاَّ يتمردوا عليها

وفي اواسط القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر كانت المرأة الهولندية سيدة نساء الغرب في الترتيب والنظام حتى كان شعراء هولاندا يفاخرون في اشعارهم بنسائهم وفتياتهم ويبالغون كثيراً بآدابهنَّ ومكارم اخلاقهنَّ وحسن سجاياهنَّ . اما المرأة الفرنسوية فلم يكن لها في ذلك الاوان همٌّ الاَّ ادارة الازياء وكانت لنساء اوربا مرشدة وهادية في ذلك . وكان النساء الفرنسويات ولا سيما الباريزيات مولعات بالملاهي يقصدنها وهنَّ لابسات اغلى الحلى واجمل الحلل ميلاً الى الزهو وحب الطرب حتى نسين واجباتهنَّ المنزلية بل صرن يهزأن بكل باريزية يريتها مقتصدة مدبرة و يصفنها بالبله والبلادة والسذاجة

اما جارتها واختي بها المرأة الالمانية التي هي اليوم في مقدمة نساء العالم اقتصاداً وحكمة واجتهاداً فلم تتخذ اخذها ولا اثرت فيها تلك العوامل اقلَّ تأثير فلم تعدُّ حدَّ الاعتدال

ولا ابتعدت عن الشك بحسن التدبير فتمكنت بذلك وباقتصادها ان تزيل تلك المصاعب والشدائد التي حلَّت بالمانيا من حروب نابليون وانشأت بقويم تربيتها امةً كريمة استطاعت ان تؤسس عظمة الدولة الالمانية في هذا الزمان

***

ان المعيشة في المدن وتألف السكان فيها ومستلزمات المدنية والعمران كل ذلك جعل الناس ينظرون الى ارتباط الرجل بالمرأة نظراً بعيداً عدوهُ وظيفة مملوءة بالواجبات . فعلى المرأة واجب هو التدبير المنزلي وعلى الرجل واجب هو السعي وتحصيل الرزق . ويظهر من تاريخ العائلة منذ تكوينها الى اليوم ان هذين الواجبين شديدا الارتباط ولا يتمان الاَّ بالاتفاق والاتحاد فيبران متآزرين كلٌّ منهما يجلُّ واجبات الآخر حتى صار الرجل يخضع لنظام المنزل وقوانينهِ وان تكن غير مدونة ولا مكتوبة خضوعهُ للنظام المدني وقوانين البوليس فترى كلَّ شيء في المنزل دليلاً على الدقة والعناية وحسن الترتيب

وما كاد دور المعيشة المدنية يزهو ويزهر وينمو ويكبر حتى ظهرت النهضة الصناعية بقوة عجيبة فلم يستغنَ في البيت عن الاشغال اليدوية فقط بل عن كل ما كان يصنع بغير الآلات ايضاً . فقد كان من الاشغال المنزلية صنع الصابون والشمع والسكر والاشربة والانسجة وما اشبه فاستبدل ذلك بما تصنعهُ المعامل واستراح النساء والبنات من اشغال كثيرة وتوفرت فيهنَّ القوى التي كنَّ يصرفنها على تلك الاعمال وتحولت الى ترقية مداركهنَّ وتثقيف عقولهنَّ واشتغالهنَّ بالمتاجر والصناعات فانتقلنَ بذلك من دور الى دور . وبلغ هذا الانتقال او التبديل اشدهُ منذ اواسط القرن التاسع عشر

وتلا هذا الدور دور آخر هو من اهم ادوار المرأة ان لم يكن اهمها بوجه عام . وهو دور المساواة بين الرجل والمرأة . على ان هذا الدور ما ليث ان رجع القهقرى وكاد الدهر يحني عليهِ ويثنينا اياهُ الاَّ ان هذا الفتور او السبات انقضى اجلهُ وكان القاضي عليهِ روح حياة جديدة دبَّت في النساء . وكانت انكاتية الاسوجية الن كاي المشهورة مذكية هذه الروح فانها الفت كتابها المشهور « جيل الولدان » الذي نقل الى لغات اوربا وبيعت ملايين من نسخهِ . فقام النساء ينازعن الرجال ويثرنَ عليهم حرباً عوانًا اذكت روح حياة جديدة واعني بها اجلال الفضائل النسائية وتعظيم قدرها في الام وبعبارة اجلى بذل النفس والنفيس في ارضائها ولم يعد ينظر اليها كأنها شيء خليق بالحماية والوقاية في معمعان هذه الحياة

لما نشر دور المساواة بين الرجل والمرأة واشتدَّ النضال بين الفريقين لأن اولها اراد هضم

حقوق الثانية قلَّ التفكير في الثانية التي هي الرابطة المتينة بين الرجل والمرأة وفي الجيل المقبل الذي لهُ حقوق مرتبطة بواجبات الزمن الحاضر . فكتاب « جيل الولدان » الذي اشرت اليهِ آنفاً ايقظ الهمم النائمة وبعث في النساء حياة جديدة . ثم نسجت كتب على منواله فكانت نتائجها ما نراهُ من احترام المرأة في القرن العشرين والاعتراف لها بحقوقها ان لم يكن كلها فجلها

***

كتاب الن كاي الكاتبة الاسوجية المشهورة أقام اوربا واقعدها واذكى في نسائها وطيس الحمية . وكتاب تحرير المرأة الذي الفهُ الطيب الذكر الخالد الاثر قاسم بك امين اقام مصر واقعدها . وتصدَّى لهُ الكتَّاب بين مستحسن ومستهجن وكانت الحملات عليهِ شديدة جدًّا . ولكن الحق لا يخفيهِ الباطل والشمس لا يحجبها الغيم فكما ان الحق يغلب والشمس تعود فتظهر تحيي هذا العالم ناسهُ وحيوانهُ واشجارهُ وازهارهُ كذلك كتاب تحرير المرأة انتشر وذاع وقدَّرهُ علماء الشرق حق قدرهِ واجلوا مقام صاحبهِ الذي خلد لهُ ذكراً لا يمحوهُ الزمان

وسوف يأتي يوم وما هو باليوم البعيد أرى فيهِ ان شاء الله المرأة المصرية مقتدية بالمرأة الغربية في تنشئة بنيها وتدبير منزلها بالاقتصاد ورفع مقامها في الهيئة الاجتماعية

***

رأى اهل الغرب انصراف نسائهم وفتياتهم الى التجارة وبعض الصناعات وتركهنَّ الوظيفة البيتية التي وجدنَ من اجلها . فالفتيات اللواتي يتمرَّنَ دروسهنَّ مثلاً ينخدعن بظواهر الاشياء فيخترن الاشتغال بالبيع والشراء او الوظائف الكتابية كالكتابة على الالة الكاتبة او صناعة المحاماة والطب وما شاكل ذلك من الصناعات والاشغال التي يعتقدن بها فيتوهمن انهن يكنَّ بها اوفر حظًّا واكثر حرية من اللواتي يلزمنَ منازلهنَّ ويساعدن في تدبير الامور المنزلية . ففي الايام التي يقضينها في المدرسة لا يجدنَ من الوقت متسعًا للقيام بالاعمال المنزلية في بيوتهنَّ فقبل الظهر اذ يقضي معظم هذه الاعمال يكنَّ في المدرسة وبعد الظهر يضطررنَ ان يدرسنَ ويطالعنَ ويتروضنَ باللعب . وكثيراً ما يتفق ان الفتاة تتزوج بعد تركها للمدرسة وتضطرُّ لان تدير شؤون منزلها وهي لا تعرف كيف تطبخ لوتًا واحدًا من الطعام

رأى الغربيون ان ذلك من اعظم الاسباب التي تحول دون ترقية التدبير المنزلي والمعيشة

العائلية فاعملوا الروية في تلافي هذا الامر وصدّ تيارهِ فانتهى بهم التفكير والبحث الى انشاء مدارس يُعلَّم فيها فن التدبير المنزلي او انشاء اقسام لهذا الغرض في المدارس العادية فافلحوا وجاءت النتائج مطابقة لرغبتهم وسادَّة لذلك النقص لان الفتاة متى خرجت من المدرسة بعد ما تكون قد تعلمت فيها فن التدبير المنزلي واشتغلت بالحماماة او البيع والشراء مثلاً فذلك لا يمنعها من ان تكون ربة منزل تحسن ادارتهُ بعقل وحكمة . وزد على ما تقدم ان الغربيين انشأوا فِرَقاً او صفوفاً لتعليم المطلقات اللواتي سيعلنَ التدبير المنزلي . ولا يخفى عليكنَّ ان نظارة المعارف في هذا القطر ومجالس مدرياته تحقق الآن هذه الغاية التي تعدُّ خطوة عظيمة في ترقية التدبير المنزلي فيهِ

ومما جرى في اوربا ان كثيرات من العائلات جعلن يقصدن المطاعم لتناول الطعام لاشتغال المرأة عن تدبير منزلها باشغال الرجال ولكن هذه العائلات لم تهنأ بالمآكل فيها فانشئت مطاعم دعيت مطاعم العائلات وفي ترسل الاكل مطبوخاً الى كثير من المنازل باثمان متهاودة . وعندي ان هذا امر قد لا تصل اليهِ ولو بعد قرون لما يقف في سبيلهِ من عاداتنا وعدم مشاركة المرأة الشرقية للرجل في اعمالهِ

***

في هذا الحال امرأتان واحدة تدير منزلها بيدها وتقوم باعمال بيتها او تناظر على خدمها وواحدة تشتغل بصناعة خارج بيتها . فاذا امعنا النظر في معيشة عائلتي تينك المرأتين نرى الاولى منهما اهنأ معيشة واسعد حالاً وانعم بالاً . نعم ان كثيرات يحاولن ان يحررن نفوسهن من الواجبات المنزلية ولكن الرقيّ والوقوف من النساء يتدرجن على تدبير المنازل لا يجدنهُ في ذلك من انبساط النفس وانشراح الخاطر

فني كل يوم وساعة يظهر لنا ان الميل الذي في المرأة الى تدبير معيشتها ومعيشة عائلتها والقوة المذخورة فيها التي تدفعها الى الجهاد في ترقية المجموع هما امران لا يمكن الاستغناء عن المرأة فيهما في دائرة المنزل . فمن طبيعتها التي فطرت عليها شغفها بالاشياء الجميلة والاشكال الحسنة . فهذا الشغف يصيرها عاملاً مهماً في ترقية الذوق السليم والترتيب والنظام

فالمرأة هي التي تعدُّ للرجل معدات الراحة التي لا يجدها في خارج منزلهِ حيث يسعى الى اكتساب المال فيلقى في سبيلهِ من الغموم والهموم والاتعاب والآلام ما لا يخفف اثقالهُ الاَّ ابتسامةٌ من زوجتهِ واولادهِ ومنزل كل ما فيهِ حسن وجميل

ويخلق بي في هذا المقام ان احوّل انظار السيدات المصريات الى امر هو من الاهمية